قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم "مقاربة لسانية

مجيطنة عبد الحق : أستاذ محاضر أ
كلية الآداب واللغات
جامعة الحاج لخضر - باتنة

ملخص

القرآن الكريم نصّ ذو خصائص لسانية مميزة، يحمل بين دفتيه ظواهر لسانية وأدبية متميزة، نتيجة للسياقات الخارجية المصاحبة لظهوره واكتمال بنائه على مدى ثلاث وعشرين عاما. وعليه كانت القصة القرآنية - باعتبارها واحدة من جملة الظواهر الأدبية في النص القرآني - ذات مميزات بنائية ومضمونية فريدة، وجب النظر فيها بعين البحث العلمي، وبشكل خاص الشكل البنائي الذي تشكلت وفقه هذه القصة في جسد القرآن الكريم. من أجل ذلك جاءت هذه الورقة البحثية لإعطاء مقاربة لسانية لقصة موسى (ع) في القرآن الكريم، وتحديد بعض من الخصائص اللسانية البنيوية التي تنطوي عليها هذه القصة.

الكلمات المفتاحية: النص القرآني؛ القصة القرآنية؛ بنية النص القرآني؛ قصة موسى (ع)؛ اللسانيات البنيوية.

Abstract

Qur'an is a text with special linguistic characteristics, carrying distinct linguistic and literary phenomena between its walls, as a result of the external contexts associated with its appearance and the completion of its construction over the past 23 years. Thus, the Qur'anic story, as one of the literary phenomena in the Qur'anic text, has unique structural and concrete characteristics. It must be considered with scientific research, and in particular the structural form in which this story was formed in the body of the Holy Qur'an. For this purpose, this paper was presented to give a linguistic approach to the story of Moses (peace be upon him) in the Holy Qur'an, and to identify some of the structural linguistic characteristics involved in this story.

Key words: Quranic Text; Qur'anic Story; Structure of Qur'anic Text; Moses' Story;

مقدمة

يحمل النص السردي القرآني، في طياته خصائص النص القرآني عموما، ولا يمكن عزل دراسته عن دراسة النص القرآني. وعليه فإنه من الواجب علينا في أثناء دراسة السرد القرآني التطرق إلى خصائص البنية النصية للقرآن الكريم، من أجل تفسير البنية السردية لقصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم، سواء على مستوى السور القرآنية جميعها، أو على مستوى السورة الواحدة، التي ورد فيه ذكر القصة موضوع الدراسة والتحليل في هذه الورقة البحثية. وعليه سنحاول في هذا الفصل تحديد بنية النص السردي القرآني، وإعطاء مقاربة مفاهيمية لبنية النص السردي القرآني، انطلاقا من تحديد البنية النصية في القرآن الكريم، ثم البنية السردية في السور القرآنية، وصولا إلى البنية السردية في السورة القرآنية، لقصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم.

أولا: بنية النص القرآني

لو تصفحنا تاريخ القرآن الكريم منذ نزوله حتى تدوينه، لوجدنا أنه "لم يكن [...] على هذه الهيئة في حياة الرسول (ص)، وإذا كان النص مطابقا تماما لما أملاه لكتبة الوحي، فإن الشكل الخارجي قد طرأ عليه تغيير كبير [...] فقد نزل أجزاءً متفرقة تتباين أطوالها من سورة كاملة إلى آية واحدة وأحيانا إلى أجزاء من الآية."[1] فالقرآن الكريم على هذا الأساس بنية نصية منجّمة في أصلها، وقد تم جمعها ولحمها قبل أو بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، على شكل مقاطع قرآنية، هي: السور، ليتم ترتيبها وفق النظام النصاني الذي بين أيدينا الآن (المصحف العثماني)، بعد وفاة الرسول (ص) على شكل مصحف.

فالقرآن الكريم ـ النص المتوفر لدينا حاليا ـ كما هو معروف، ينقسم إلى ثلاثين جزءاً، وكل جزء ينقسم إلى حزبين، وكل حزب هو سورة أو جزء من سورة أو عدة سور، وكل سورة هي مجموعة آيات، وكل آية هي مجموعة كلمات. يمكن للقارئ أن يتفحص بنية القرآن الكريم واكتشاف نظامه النصاني بمجرد الرجوع إلى المصحف الشريف، وفق ترتيب عثمان بن عفان رضي الله عنه (المصحف العثماني)، فالمصحف يتضمن علامات نصية توحي وتدل على بنيته وتقسيمه وروايته وترتيله وقراءته... اعتمدت من طرف المشرفين على تخطيطه وطبعه وإخراجه، وهي على قدر كبير من الدقة. وفوق ذلك فقد نجد من الأحزاب والأجزاء من القرآن الكريم ما اشتركت في سورة واحدة؛ مثلا قد نجد جزءا من القرآن الكريم أو حزبا منه وقد

اشترك مع الجزء أو الحزب الذي يليه في سورة ما، وهذا ما يجعل أمر دراسة النص القرآني أصعب وأدق. كما نجد تقسيم القرآن إلى نصفين في أغلب الكتب المهتمة بعلوم القرآن الكريم.[2]

والأكيد لدينا كذلك هو أن هذا الترتيب قد تمّ قبل وفاة الرسول (ص)؛ أي أنه ليس من اجتهاد الصحابة (رضوان الله عليهم) أثناء رسم المصحف الشريف وإخراجه في شكله النهائي، بل لابد وأنهم قد أخذوا عن الرسول (عليه الصلاة والسلام) بنية القرآن الكريم وشكله الذي بين أيدينا الآن؛ أي أنه من صميم الوحي. فالقرآن الكريم وإن كان قد دوّن في حياة الرسول (ص)، على الرقع والسعف والعظام، فإن إخراجه وفق نظامه النصاني قد تم بعد وفاته بأمر من الخلفاء الراشدين وبإجماع الصحابة (رضوان الله عليهم).

والحقيقة التاريخية الأكيدة، هي أن ترتيب القرآن الكريم على الشكل الحالي الذي بين أيدينا والمتداول بين العامة والخاصة، ليس هو ترتيب النزول؛ أي أنه ليس الشكل الذي ظهر عليه القرآن الكريم خلال فترة الدعوة الإسلامية. و"المقصود بترتيب السور هنا هو ترتيبها في المصحف أي كون سورة آل عمران بعد سورة البقرة، وسورة النساء بعد سورة آل عمران وهكذا."[3] وإن ترتيب القراءة الحالي (حسب الترتيب الذي أقرّه المصحف العثماني)، قد أهمل السياق التاريخي الذي نزل فيه القرآن الكريم، وعليه فإن استعادة هذا السياق أمر ضروري من أجل فهم النص القرآني أكثر. إذن لابد من الأخذ بعين الاعتبار أن القرآن الكريم من الناحية الشكلية لم يبق كما ظهر أول مرة، بل هناك ترتيب، أو بالأحرى، إعادة ترتيب، لبنيته النصانية لابد من اعتبارها هي كذلك. وعليه يصبح الباحث أمام بنيتين نصيتين اثنتين للنص القرآني، البنية الأولى تاريخية تراعي الترتيب التاريخي لأجزاء النص القرآني، والثانية غير تاريخية تهمل هذا الترتيب التاريخي لأجزاء النص القرآني. والبنية النصية الأكثر استعمالا في قراءة ودراسة النص القرآني، هي البنية اللاتاريخية؛ أي البنية النصية وفق الترتيب العثماني.

وبالرغم من كون النص القرآني الكريم قابلا للتشكل وفق بنيتين نصيتين اثنتين مختلفتين، البنية الأولى تاريخية تراعي الترتيب التاريخي لأجزاء النص القرآني، والثانية غير تاريخية تهمل هذا الترتيب التاريخي لأجزاء النص القرآني. وبالرغم من كون القرآن الكريم نصا مبنيا على قانون الاختلاف والتباين فيما بين وحداته البنائية المكونة له، من سور وآيات، فإنه يبدو واضحا أنه نص بما تحمله الكلمة من

ظلال ودلالات، حيث تتجلى بنيته النصية بوضوح للقارئ، رغم كونه نصا منجما، نزل على فترات زمانية طويلة ومتباعدة. فالمتأمل في بنية النص القرآني على عمومها، في جميع أجزائه وسوره، يلاحظ أن القرآن الكريم نص لغوي متماسك متراص منسجم فيما بينه؛ فهو في بنائه يراعي عوامل النصية: 1 ـ **الاتساق:** النحو في القرآن الكريم. 2 ـ **الانسجام**: الدلالة في القرآن الكريم. 3 ـ **القصدية**: التأثير في القرآن الكريم. 4 ـ **المقبولية**: جانب التلقي في القرآن الكريم. 5 ـ **التناصية**: تقاطع النصوص مع القرآن الكريم. 6 ـ **الإعلامية**: التواصل في القرآن الكريم. 7 ـ **المقامية**: السياقات في القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم من حيث بنيته النصانية يحمل خصائص النصية، سواء في بنيته التاريخية؛ على اعتباره نصا قد تشكل في سياقات واضحة، حسب الضرورة وحسب الحاجة (حسب ترتيب النزول). أو في بنيته اللاتاريخية (النصانية)؛ المصحف وفق الترتيب العثماني، حيث يجد القارئ نفسه أمام نص متماسك: متسق المبنى، ومنسجم المعنى.

ثانيا: بنية القصة في القرآن الكريم

1 ـ البنية حسب الترتيب التاريخي والترتيب اللاتاريخي

انطلاقا من هذه الخصائص البنائية للنص القرآني، وفق بنيته التاريخية واللاتاريخية، فإننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم وتأملناه، باحثين عن الوحدة الموضوعية فيه، فإننا سنخلص إلى أن ترتيب القرآن الكريم في المصحف الشريف قد ترك الوحدة الموضوعية، إذ لم يلتزمها على الإطلاق. وفي نفس الوقت نجده قد ترك الترتيب الزمني ـ التاريخي لظهور الآيات أو نزولها، فلم يحتفظ به بتاتا؛ مما يعني أنه لم يلتزم بالترتيب التاريخي ـ الزمني في الحديث عن الموضوع الواحد. فقد عمد من جهة إلى تفريق الحديث عن الموضوع الواحد، في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة، ومواضع متفرقة، غير معتبرٍ للترتيب الزمني من جهة أخرى.

وذلك كله يقتضي منا أن ننظر في القرآن الكريم موضوعا موضوعا، فتُجمع الآيات المتفرقات بين دفتيه، والتي تتعلق بالموضوع الواحد، في شكل نص واحد، ثم بعد يُنظر بعد ذلك في سياقاتها المختلفة وملابساتها المتعددة. حيث أن الرجوع إلى البنية التاريخية للنص القرآني يعني "تفسير البنية بالكيفية التي تكون بها النص، فهو ينقلنا إلى رصيد النشأة النصية، والعوامل الفاعلة في هذه النشأة، وما تأثرت به

البنية، حتى أخذت شكلها وهيئتها."[4] وكذلك هو شأن القصة في القرآن الكريم، فإن القرآن لم يلتزم الترتيب فيها مطلقا، إذ نجده قد عمد من جهة أولى إلى تفريق الحديث عن القصة الواحدة والموضوع الواحد، في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة، ومواضع متفرقة، غير معتبرٍ للترتيب الزمني فيها من جهة ثانية.

وعليه فإن القصة القرآنية الواحدة ترد متفرقة، في ثنايا القرآن الكريم. وإنها فوق ذلك مكررة في بعض حلقاتها من حيث البناء العام، وكذلك فالقصة الواحدة المذكورة في مواضع من القرآن الكريم مختلفة ومتباينة تختلف أحجامها من حيث الطول والقصر، ومن حيث عدد الآيات وأطوالها، وأساليبها، وطرائقها. وهذا ما سوف يتضح أكثر كلما تقدمنا في البحث أكثر، إذ "لم تلتزم القصة القرآنية طريقا واحدا من حيث الطول والقصر والإجمال والتفصيل، فهناك القصة المفصلة كما في قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقصة نوح عليه السلام في سورة هود، وهناك القصة المجملة كما في قصة نوح في سورة الأعراف، وقصة موسى في سورة هود، فلقد أجملت كل من السورتين ما فصلته الأخرى.

وكذلك سورة يونس فقد فصّلت بعض التفصيل في قصة موسى عليه السلام، وأجملت في قصة نوح عليه السلام."[5] وهذا تبعا للنظام النصاني الذي يحكم النص القرآني عموما، والذي يتجلى في جملة خصائص أهمها: نزوله مفرقا منجما حسب الضرورة وحسب الحاجة، وإعادة الترتيب في بنائه النصاني على مستوى السورة الواحدة، وعلى مستوى جسد القرآن الكريم ككل. وبالتالي تفريق الحديث عن الموضوع الواحد وعدم مراعاة الترتيب التاريخي في الأجزاء المكونة للموضوع الواحد.

وعليه يمكن الافتراض مبدئيا: أن الشكل اللغوي الخاص بالنص القرآني الكريم، يتحدد من خلال طريقة تشكّله الخاصة، أو بالأحرى طريقة تنظيمه وإعادة ترتيبه، وطريقة تشكّله الخاصة به مرتبطة بظروف وملابسات تنزّله ـ على اعتبار أن القرآن الكريم كتاب سماوي منزّل ـ إذ نزل القرآن الكريم منجّما؛ أي أنه نزل مفرّقا، مجزّءا، مقسّما، حسب الحاجة، وحسب الضرورة، وحسب الموقف؛ أو حسب ما تقتضيه الدعوة الإسلامية. حيث إنه لمن النادر الشاذ أن نجد سورة كاملة قد نزلت دفعة واحدة، إلا السور القصار منها، وبعض من السور الطوال شيئا ما. "وربما نزلت الآيات التي توضع في آخر السورة قبل الآيات التي توضع في أولها أو مقدماتها، وربما لم يكتمل بناء بعض السور المفتوحة إلا خلال سنوات."[6] بل إننا نجد بعضا من السور

قد كان الفرق الزمني بين أول آيها وآخره في النزول، يصل إلى عشر سنوات وربما أكثر؛ إذ لم تكتمل هذه السور بنائيا إلا بعد عشر سنوات من عمر الدعوة الإسلامية.[7]

2. البنية حسب القرآن المكي والقرآن المدني

كما أن القرآن الكريم قد تشكّل بناؤه خلال فترة زمنية معتبرة؛ حيث نزل خلال مدة زمنية طويلة: ثلاث، أو اثنان، أو إحدى، وعشرون سنة، على اختلاف الروايات. كما أنه نزل على قسمين اثنين: مكي ومدني، حسب مرحلتي الدعوة الإسلامية. فالقرآن الكريم كنص لغوي، زمنيا، واقع على محور زماني طويل بعض الشيء، فالبعد الزمني بين أول آية وآخر آية منه، يتجاوز العشرين عاما على أقلّ تقدير. وعليه فالقرآن الكريم كبنية نصية كبرى، هو في الأصل بنية منجمة الأجزاء مفككة، تمّ تركيبها ولحمها على الشكل الذي هو بين أيدينا الآن (المصحف العثماني).

فالنص القرآني كما تبيّن من قبل، هو نص منجَّمٌ، على مختلف مراحل الدعوة الإسلامية، وعليه فلقد "كان نزول القرآن منجَّما، سببا في أن بعضه نزل بمكة وبعضه بالمدينة، فكان منه المكي ومنه المدني، فالمكي هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، فما نزل بعد الهجرة، ولو بمكة يسمى مدنيا، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكيا، فالتقسيم زماني، وليس بمكاني، ليست العبرة بمكان النزول، إنما العبرة فيه بزمانه."[8] وهناك أسس أخرى للتصنيف، فإذا كان هنالك من يصنف القرآن الكريم إلى مكيّه ومدنيّه على أساس الزمان فهنالك من يصنفه على أساس المكان؛ وعليه فـ "المكي ما نزل بمكة ويدخل في ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديبية."[9] أما الشق الآخر، "المدني: ما نزل بالمدينة ويدخل في المدينة ضواحيها كالمنزل عليه ببدر وأحد."[10]

وليس هذا فحسب، بل هناك من يذهب إلى أبعد من هذا الأساس، حيث يصنّف القرآن المكي والمدني، على اعتبار المخاطَب فيه، وعليه فـ "المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة."[11] وعليه لا يمكننا أن نطمئن إلى دقة التصنيف الحالي للقرآنين المكي والمدني، مادام هنالك معايير وأسس مختلفة للتصنيف. ولعل هذا ما يبرر اختلاف الروايات في تصنيف بعض السور من القرآن الكريم، كما يفسر كذلك وجود هجانة مكية ـ مدنية في بعض السور. وإن كان "العمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل، والتابعين الآخذين عنهم."[12] فإنه لا يمكن الوصول تدقيقا إلى

التمييز بين المكي والمدني، فهناك خلط كبير فيما بين القرآنين المكي والمدني، مع تعدد الروايات وكثرتها، واختلاف هذه الروايات وتناقضها.

لكن رغم هذا فالقرآن الكريم: قرآن مكيٌّ، وقرآن مدنيٌّ، ويُجمع دارسو القرآن الكريم: من فقهاء وأئمة ومفسرين ومحدّثين ومقرئين... على أن الجنسين: متمايزان، متباينان، مختلفان، تمايزا وتباينا واختلافا، واضحًا. "فالاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع وافعل ولا تفعل فهو مظنة السور المدنية."[13] وعموما يمكن القول أن القرآن المكي يقابل العقيدة في الإسلام، أما القرآن المدني فيقابل الشريعة في الإسلام.

ومن ثم فإن مقولتي الشريعة والعقيدة هما: المفتاحان الأساسيان في التمييز بين المكي من القرآن والمدني منه. فقد "دارت الآيات المكية عموما حول إنشاء العقيدة [...] في الله وفي الوحي وفي اليوم الآخر، وحول إنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه."[14] ومن جهة ثانية فقد "دارت الآيات المدنية حول مسائل التشريع والأحكام وعلاقة الفرد بالمجتمع، والمجتمع الإسلامي بسائر المجتمعات الإنسانية والأمم الأخرى."[15] هذا وقد وضع العلماء بعض الشروط التي يمكن من خلالها التمييز بين ما هو مكي وما هو مدني من القرآن الكريم، وإن كانت هذه القواعد في بعض الأحيان غير قادرة على التمييز بين جنسي القرآن الكريم، لذلك فالتمييز بينهما يكون عن طريق الرواية؛ أي بمعرفة زمن نزولها من روايات أسباب النزول والتي وصلتنا تواترا.

يؤكد تاريخ الرسالة المحمدية أن الدعوة الإسلامية قد مرت بمرحلتين تاريخيتين متعاقبتين: المكية والمدنية، إذ "عاشت الدعوة الإسلامية - أولا- المرحلة المكية حيث القلة والضعف والشدة والإيذاء والكيد [...] مع الأمر بالهجر الجميل والصفح، وكف الأيدي [...] والصدع بالحق."[16] والقرآن الكريم - بصفته وثيقة تاريخية تؤرخ للدعوة الإسلامية - قد كان يذكر في نصه ما كان يتعرض له المسلمون الأوائل من اضطهاد وتعذيب على أيدي مشركي مكة ومعارضي الدعوة. "ثم عاشت الدعوة المرحة المدنية [...] فكان الأمر بالقتال، وكان النصر وكانت الهزيمة، وكان الكيد الداخلي الخفي المتمثل في النفاق، وكان الكيد الخارجي الجلي المتمثل في تأليب اليهود ومحاولات المشركين في القضاء على المسلمين، وكانت صور من البناء النفسي الرائع في نفوس الصحابة، إلى جانب نفوس يغلب عليها الضعف مرة، والهوى

مرة، وتقعد بها رغائب الأرض وتشدها إليها مرة أخرى."[17] وفي هذه المرحلة الحاسمة من الدعوة الإسلامية كان القرآن الكريم وثيقة تاريخية تشهد على نمو الدعوة وتطورها وسيرها نحو النصر وإعلاء كلمة الله، وانتصار المسلمين المستضعفين على أعدائهم المشركين ومن هذه الخصائص التاريخية المحيطة بالقرآنين: المكي والمدني، كان "القرآن المكي أقل انغماسا من القرآن المدني في الأحداث التاريخية عينها، لأن الفترة المدنية مليئة بالأحداث والصراعات ولأنها سياسية بامتياز."[18]

إذاً، فلكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية قرآنها الذي جاء من أجل التأريخ لها، والنظر فيها، وطبيعي أن يختلف كلاهما من حيث الشكل، باختلاف ظروف تشكلهما. وعليه كان النص القرآني الكريم وثيقة تاريخية تؤرخ وترصد كل حركات الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية والمرحلة المدنية، "فالقرآن ـ قبل كل شيء وبعد كل شيء ـ هو المصدر الوحيد الذي لا يتطرق إليه الشك كمصدر تاريخي لعصر النبوة بشقيه المكي والمدني."[19] وبذلك جاء القرآن الكريم بين المرحلتين مختلفا متباينا متمايزا، وذلك لاختلاف وتباين وتمايز خصائص كل مرحلة.[20] وعليه فإن طبيعة الموضوعات المطروقة في كل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية لابد وأن تختلف بين المرحلتين اختلافا واضحا؛ إذ لابد أن يتناول كل نوع مواضيع تتلاءم والسياقات الخارجية للدعوة الإسلامية على اعتبار أن القرآن الكريم قد نزل منجما حسب الضرورة وحسب الحاجة.

وبما أن القصة في القرآن الكريم هي جزء لا يتجزأ من متن القرآن الكريم، فإنها بالضرورة وحتما، لابد وأن تكون متماشية مع خط القرآن الكريم، وبالتالي فإنها بالضرورة وحتما، لابد وأن تكون متماشية مع خصائص القرآن المكي والقرآن المدني، فما ورد في القرآن المكي من قصص قرآني فهو يؤرخ للعهد المكي، وما ورد في القرآن المدني من قصص قرآني فهو يؤرخ للعهد المدني. وعلى الباحث أن يتقيد بهذه الشروط التي تقيدت بها القصة القرآنية بين المكي والمدني التي راعاها القرآن الكريم في قصصه وسرده لأخبار الماضين من الأمم والأقوام والأنبياء والرسل. "ومع هذا الاختلاف الرئيسي في الموضوع بين المكي والمدني [...] مراحل وتدرج هنا وهناك، واختلاف – في ذلك كله – في الأسلوب والحلية والشكل بما يناسب كل موضوع من المواضيع، وكل مرحلة من المراحل."[21] وهذا يدفعنا إلى القول بأن هذا الاختلاف الحاصل بين المكي والمدني في الموضوع والذي انجر عنه اختلاف في الأسلوب

والشكل بينهما سيؤدي بالضرورة إلى اختلاف في موضوع القصة القرآنية وشكلها وأسلوبها وبنائها الفني، بين القرآن المكي والقرآن المدني.

وهذا يعني أن "معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج إليها المفسر لكتاب الله."[22] وعلينا التأكيد على أنه: بالرغم من كون "العمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل، والتابعين الآخذين عنهم."[23] فإنه لا يمكن الوصول تدقيقا إلى التمييز بين المكي والمدني، فهناك خلط كبير فيما بينهما، مع تعدد الروايات وكثرتها، واختلاف هذه الروايات وتناقضها. وبالرغم من كون آيات القرآن الكريم قد قُسّمت إلى المكي والمدني، فالسور المدنية "نجد فيها عناصر مكية أو آيات تستعيد أمورا وقعت من قبل في مكة، كما نجد آيات مدنية في صلب السور المكية، وهذا شيء تفطّن إليه علماء المسلمين القدامى."[24] هذا يعني أن بعض السور هجينة من المكي والمدني، وعليه كان "القرآن الكريم على أربعة أنواع: مكي خالص. مدني خالص. مكي بعضه مدني. مدني بعضه مكي."[25] وعلى هذا الأساس يجب ألا نغالي في الرجوع إلى خصائص القرن المكية والمدنية، فقد يصادف أن يكون بعض من القرآن مكيا قد صُنف تحت المدني، أو بعضه مدنيا قد صُنف تحت المكي، مما يعني غياب السياق التاريخي له وهذا ما قد يوقع الباحث في بعض المتاهات.

وبما أن القرآن الكريم: مكي ومدني، والمكي منه يختلف عن المدني، فإن لكل منهما سمات شكلية وموضوعية تميزه عن الآخر، ومردُّ ذلك كله هو اختلاف السياقات المتحكمة في تشكيلهما وتباينها. والقصة القرآنية تحديدا هي خط فاصل بين القرآنين: المكي والمدني، ونستطيع من خلالها التمييز بينهما، "فلقد احتل القصص بجميع ما تكرر منه أكبر حيز من مقامات النظم المكي حتى جعل ضابطا مميزا له، فقد قالوا: إن كل سورة فيها قصص الأنبياء، فهي مكية سوى سورة البقرة."[26] وهذا الإنفراد بالقصص القرآني من طرف القرآن المكي على حساب المدني يعود بالدرجة الأولى إلى خصائص كل منهما، والذي يرتبط بدوره بخصائص المرحلة الذي نزل فيها هذا القرآن أو ذاك، وفق ما أشرنا إليه سابقا. "ولو أننا استقرأنا القرآن الكريم لوجدنا أن نصف السور المكية تقريبا لم تخل من ذكر هذا القصص، سواء أكان ذلك موجزا أم مفصلا."[27]

وإذا عدنا إلى المصحف الشريف وتتبعنا قصة موسى عليه السلام، لوجدنا "أن الحديث عنه لا يقتصر على السور المكية كما هو شأن الحديث عن كثير من الأنبياء، وإنما وجدناه في السور المدنية بل ربما في آخر هذه السور نزولا."[28] وإذا ما استثنينا قصة آدم عليه السلام الواردة في سورة البقرة، وهي سورة مدنية، فإننا سوف نحكم على قصة موسى بأنها قصة شاذة، خارجة عن قانون السرد القصصي في القرآن الكريم، مقارنة بقصص باقي الأنبياء عليهم السلام، فيما يخص المكي والمدني في القرآن الكريم. وهذا ما يعطي هذه القصة مشروعية ومصداقية فنية لأن تكون معادلا فنيا قويا للسيرة النبوية المباركة، على اعتبار أن الدعوة الإسلامية هي دعوة مكية ودعوة مدنية، وبالتالي تكون قصة موسى عليه السلام القصة الأقدر والأجدر على تمثيل واقع الدعوة الإسلامية بكل معطياتها، وذلك بعد ترهينها وفق هذا الواقع ووفق هذا الراهن.

ثالثا: الخصائص النصية لقصة موسى (ع).

إضافة إلى جملة الخصائص البنائية المشار ليها سابقا، والتي يتميز بها النص القرآني فإن هناك خصائص أخرى لابد من اعتبارها أثناء النظر في النص القرآني، حيث جاء كذلك في الأثر الشريف أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وقد اختلفت وجهات النظر في تحديد معنى الأحرف السبعة والمراد منها. وقد برزت ستة آراء على الأقل تفسر معنى الأحرف السبعة المقصودة، والتي نزل القرآن عليها.[29] وهذا راجع إلى أن الأحاديث الواردة في نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف مع كثرتها وتعدد رواياتها جاءت مجملة، لا تكشف عن حقيقة المراد بهذه الأحرف، ولم يأت نص صحيح صريح يبينها، فكان الاجتهاد في تحديد المراد بها مدعاة للاختلاف."[30] وهذا ما يجعل البنية النصية للقرآن الكريم، بنية أكثر تميعا وأكثر هلامية.

كما "أن الروايات الواردة في مجموعها يشوبها بعض الغموض والإبهام، فليس فيها ما يبيّن بجلاء نص الآية أو الكلمة التي وقع الاختلاف في قراءتها، ولا نوع الخلاف في تلك القراءات، أكان خلافا صوتيا يمكن أن يعزى إلى تباين اللهجات في النطق وطريقة الأداء مع وحدة اللفظ، أم كان اختلافا في اللفظ مع وحدة المعنى؟."[31]

وعليه فإن النص القرآني في تفسيره وبيان مراده، لابد وأن يستعان فيه بالاحتمالات النصية الممكن تشكله ضمنها. "وإذا كان بعض العلماء أوّلوا معنى الأحرف السبعة باختلاف في الألفاظ مع اتفاق في المعاني، فليس في أي مما روي عنهم

أن هذا كان يعني أنه كان للقرآن أو ألفاظ القرآن نصوصا عديدة، وإنما الذي يعنيه أنه كان ترخيصا بإبدال كلمة بكلمة في معناها على أن لا يكون فيها مضادة ولا مغايرة."[32] وعليه فإن النص القرآني في أصله قد جاء نصوصا عديدة مختلفة في اللفظ ومتفقة في المعنى، وقد تم توحيد لفظه مع معناه عند التأصيل على مصحف واحد هو مصحف عثمان، بلغة واحدة هي لغة قريش.

وما يزيد في صعوبة النص القرآني، الجانب الشفهي فيه، فالقرآن الكريم كتاب أُنزل للقراءة والتجويد والتلاوة، أكثر منه للتدوين والتقييد والكتابة، ذلك أن "السبب في الاختلاف في عدد الآي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة فمن نظر إلى الوقف قال أنها رأس آية، ومن نظر إلى الوصل لم يقل أنها آية."[33] وهذا يعني أن الشكل الشفهي للقرآن الكريم قد أثّر على شكله الكتابي عند إخراجه في المصحف العثماني، هذا يعني أن القرآن الكريم في بنيته يَعتبر الجانبَ الشفاهي منه أكثر من اعتباره للجانب الكتابي فيه. وهذا راجع إلى السياقات التاريخية والثقافية التي تشكّل فيها القرآن الكريم.

ففي الأصل "لقد شكل المجتمع الإنساني نفسه بداية بمساعدة الكلام الشفاهي، ولم يصبح كتابيا إلا في وقت متأخر جدا من تاريخه."[34] فالأصل في اللغة الإنسانية هو الشفاهة لا الكتابة، إذ "في العقود القليلة الماضية تنبه مجددا جمهور الباحثين إلى الشخصية الشفاهية للغة، وإلى بعض الملابسات العميقة للتقابل بين الشفاهية والكتابة."[35] ولو بحثنا في أصل كلمة قرآن ـ واعتبرنا أصلها من القراءة ـ لوجدنا أن "القرآن يشير على ما هو شفوي ((يُتلى)) بالرغم من أنه أيضا كتاب ليس على شكل المكتوب ولا حتى على شكل الوحي المكتمل."[36] وعليه فإن القرآن الكريم نص يجب ألا نتوقف في دراسته عند حدود الشكل المكتوب، بل لابد من اعتبار الشكل الشفهي فيه، فهو على الأرجح الأصل الذي يجب النظر فيه أولا.

وعليه فلابد من النظر في خصائص القرآن الشفاهية، خاصة إذا ما علمنا أن الانتقال من الشكل الشفاهي إلى الشكل المكتوب للقرآن الكريم قد أثار الكثير من الإشكاليات، فيما تعلق بالرسم والإعراب والإعجام. وكما ذكرنا من قبل فإن مكونات النص تختلف بين الشكلين اللغويين لنفس النص، فإذا كان النص القرآني مكتوبا يأخذ شكله من خلال الكلمات فحسب؛ أي الكلمات المكتوبة، فإن

النص القرآني ملفوظا لا يعتمد على تلك الكلمات منطوقةً فحسب، بل يعتمد في بنائه على الحركات والإشارات والإيماءات والنبر والتنغيم... الخ. حيث يتضمن شكل التعبير النصاني الشفهي ـ كما رأينا ـ ثلاثة مستويات: المستوى الكلامي، والمستوى المابعد كلامي، والمستوى اللاكلامي. فالنص القرآني ملفوظا، له أحكامه الخاصة، بل أكثر من ذلك فإن النص القرآني قد وجد من أجل تأديته ملفوظا، أكثر من تأديته مكتوبا. فهو في أصله قد وجد من أجل الأداء المنطوق، حيث أنه قد نقل إلينا بالتواتر الشفهي أكثر من كونه قد نقل إلينا مكتوبا.

وعلينا في هذا السياق أن نقرّ أن الخط العربي ـ عند ظهور الإسلام وكتابة المصاحف ـ كان في دور الطفولة والتكوين، ولم يكن الكتّاب ـ حينئذ ـ قد حذقوا الكتابة، فكتبوا على قدر ما تيسّر لهم."[37] وقد مر الرسم الكتابي للمصحف الشريف بعدة مراحل من التطورات، حاولت المحافظة عليه من التحريف، وتوخي المطابقة بين رسمه وصوته. وهذا ما يفتح أمامنا إشكاليات كثيرة فيما يخص دراسة النص القرآني، فيبدو من خلال تتبع مراحل الدعوة الإسلامية أن القرآن الكريم في جوهره يؤدّى شفاهة لا كتابة. وعليه فإن جوهره ومعناه لابد وأن يكون في بنيته النصية الشفهية أكثر من كونها في بنيته النصية المكتوبة.

وقد ذهب جمهور من سلف العلماء إلى القول ـ فوق ذلك ـ "أن رسم المصحف توقيفي لا يجوز تغييره، وتحرم مخالفته، شأنه في ذلك شأن ترتيب سور القرآن وآياته، لا يجوز لنا أن نقدم أو نؤخر منها شيئا."[38] أي أن القرآن الكريم توقيفي في خطه وصوته، في ترتيبه وتركيبه، يدخل في باب الوحي والتقديس وليس لأحد أن يغيّر فيه شيئا، وعليه تدخل في بنائه النصاني عوامل لا لغوية، تتمثل في شكل الخط ورسمه وطريقة تدوينه، لابد من أخذها بعين الاعتبار. وبالرغم من ذلك فإن البحث سوف يحاول رصد الظاهرة السردية في النص القرآني، ورصد خصائص السرد في النص القرآني، محاولا قدر المستطاع حصر هذه الظواهر النصية الماثلة في النص القرآني.

1ـ الفضاء النصي لقصة موسى (ع) في القرآن الكريم

انطلاقا من جملة الخصائص النصية التي يتوفر عليها القرآن الكريم، ويقوم عليها بناؤه العام، لو تأملنا القصة القرآنية الواحدة، لوجدناها ترِد في المتن القرآني على طول القرآن الكريم، مكررة ومختلفة في الطول والقصر، تارة ترِد طويلة مفصّلة مشروحة تسرد الوقائع والأحداث سردا مطنبا مطوّلا. وترِد تارة أخرى قصيرة

مختصرة موجَزة تسرد الوقائع والأحداث سردا موجزا مختَزلا. وهذا كله يرجع إلى تلك الاختلافات البنيوية الواقعة في النص القرآني، والناتجة عن خصائصه وظروف تشكله وحيثيات نزوله وكذا أهدافه ومراميه. فهذه الاختلافات البنائية للقصة القرآنية، تعود في الأصل إلى خصائص النص القرآني في حد ذاته، والذي بدوره يعود في خصائصه إلى خصائص وظروف وملابسات البيئة الثقافية التي نزل فيها.

وعليه فإن قصة موسى (ع) قد جاءت في النص القرآني مكررة مختلفة في الطول والقصر، فتراها ترد مرة طويلة مفصّلة مشروحة مشرّحة تسرد الوقائع والأحداث سردا مطنبا مطوّلا، وبالمقابل تَرِد مرة أخرى قصيرة مختصرة موجَزة تسرد الوقائع والأحداث سردا موجزا خاطفا.[39] فكما أن أطوال الآيات والسور قد جاءت مختلفة متباينة ومتراوحة بين الطول والقصر على امتداد جسد القرآن الكريم، كما فرّقت الحديث حول الموضوع الواحد على امتداد جسد القرآن الكريم، فإن القصة القرآنية ـ قصة موسى عليه السلام نموذجا ـ قد جاءت مختلفة متباينة ومتراوحة بين الطول والقصر على امتداد المواضع التي جاءت فيها، كما جاءت القصة متفرقة على طول جسد القرآن الكريم. فقصة موسى (عليه السلام) في خصائصها البنيوية تحمل خصائص القصة القرآنية من جهة أولى، كما تحمل خصائص النص القرآني من جهة ثانية.

وإذا تمعنّا قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم لوجدنا أنه لم تُحظَ قصة في القرآن الكريم بمثل ما حُظيت به قصة موسى (عليه السلام)؛ بكل فصولها السردية وأجزائها، بتكرارها وتواترها، بفنيتها وجماليتها وأدبيتها، بمواضعها في القرآن ومواقعها، بمواضيعها المطروقة ومضامينها، بأشكالها الفنية وقوالبها. إنها القصة الأكثر تكرارا، والأكثر ارتباطا بالدعوة الإسلامية، والأكثر تميُّزا من حيث تموضعها من القصص الأخرى في القرآن الكريم، فهي غالبا ما ترِد مقدّمة للقصص الأخرى أو خاتمة لها، وهي غالبا ما تتميز عن باقي القصص في القرآن الكريم؛ إذ أنها غالبا ما ترفض الترتيب الزمني التعاقبي لقصص الأنبياء في بعض المواضع التي ترِد فيها متتابعة متتالية متعاقبة.

فإذا تأملنا بعض سور القرآن الكريم التي احتوت على أكثر من قصة من قصص الأنبياء، وجدنا أن القانون السردي الذي يحكم هذه القصص في الغالب، هو قانون يراعي الترتيب الزمني للأنبياء، صعودا أو نزولا في محور الزمن. وكلما وجدنا هذا النمط السردي التعاقبي في موضع من مواضع القرآن الكريم، إلا ووجدنا أن

قصة موسى تخرج عن هذا القانون، تقديما أو تأخيرا في محور الزمن الذي تسري عليه القصص الواردة في هذه المواضع، مثل: سورة الشعراء، الأعراف، طه... الخ. وهذه الخصيصة تجعل من قصة موسى (عليه السلام) قصة ذات اهتمام خاص من القرآن الكريم، فليس تميّزها عن سائر القصص في قضية ترتيبها الزمني سوى تأكيد من القرآن الكريم على أهميتها السردية.

وهي القصة الأكثر ورودا مفردة ـ دون غيرها ـ في السور القرآنية. ففي الوقت الذي نجد فيه كثرة غير قليلة من القصص القرآنية قد وردت مجتمعة مع بعضها البعض ـ وقد جمع بينها محور دلالي واحد ـ نجد قصة موسى (عليه السلام) قد وردت متفردة وحيدة في السورة الواحدة. يصادف المتصفح للقرآن الكريم، أن أغلب السور القرآنية بمكّيها ومدنيّها، قد احتوت على قصص الأنبياء مجملة مع بعضها البعض، ونادرا ما تجد سورة قد اختصت بقصة واحدة فقط، إلا بعضها القليل، مثل قصة سيدنا يوسف (ع) في سورة يوسف.

بينما نجد أن هنالك من السور ما عالج قصة موسى (ع) منفردة دون غيرها من القصص الأخرى، أو عالجتها بصورة مفصلة ومطوّلة، دون غيرها من القصص، مثل سورة الشعراء. وهذا دليل آخر على تميز القصة التي بين أيدينا عن غيرها من القصص. فنبي الله موسى (ع) "قد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة."[40] وهذا التكرار المكثف للقصة يجعلها عيّنة جيّدة للمساءلة النقدية، على اعتبارها وحدة موضوعية واحدة، تتناول موضوعا واحدا، وتشغل حيزا قرآنيا كبيرا، مما يجعلها تمثل النص القرآني أحسن تمثيل.

ولم ترِد قصة موسى (ع) في القرآن الكريم، شأنها في ذلك شأن باقي القصص القرآني، بنية واحدة في موضع واحد، "فالقصة عبارة عن مجموعة من المقطوعات أو كما اصطلح عليها متتاليات حدثية متآلفة يربطها خيط واحد، وسواء تكونت القصة من متتالية حدثية واحدة قصيرة أم طويلة فالمتتالية تشكل وحدة موضوعاتية، أي كل مقطوعة تقدم موضوعا بعينه تتسلسل عبرها الأحداث."[41] وعليه فإن قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم، هي مجموعة متتاليات قصصية أو مجموعة مقطوعات قصصية، تشكّل كلُّ مقطوعةٍ مجموعةً طويلة أو قصيرة من الأحداث، تكوّن المقطوعة الواحدة فيما بينها بنية موحدة، وتترابط مع غيرها من المقطوعات ارتباطا معنويا، وحتى عضويا.[42]

والنص كما ذكرنا من قبل هو وحدة دلالية، "وهذه الوحدة الدلالية قد تتجسد في جملة واحدة [...] ومن ثم يحدث تطابق بين حد النص وحد الجملة. وأيضا لكون النص ليس وحدة نحوية، ولا يتألف من جمل ولا يرتبط بالجملة، فإنه قد يتجسد في أقل من جملة [...] وبالمثل لا يوجد حد أعلى لطول النص، فقد يكون كتابا كاملا [...]"[43] وهنا يمكن اعتبار قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم، بكل مواضعها: بنية نصية ـ سردية، مكوّنة من مجموع قصص، فالقصة في القرآن الكريم لا ترد بتاتا بنية واحدة جامعة لكل أجزاء الفصول والمشاهد ـ إلا في القليل النادر مثل قصة يوسف (عليه السلام) ـ بل ترد على شكل بُنىً قصصية متفاوتة الطول والقصر، ترتبط فيما بينها، وتوضّح في مجملها بعضها البعض.

وعليه يمكن اعتبار قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم نصا روائيا كاملا، يتكون من مجموعة نصوص قصصية، مختلفة الطول فيما بينها، من حيث الأحداث الوارد ذكرها في كل نص من هذه النصوص، متماشية في ذلك مع النظام النصاني الذي يحكم جسد القرآن الكريم ككل، فالنص القرآني كما رأينا من قبل يميل إلى تفريق الحديث حول الموضوع الواحد بين ثناياه، بحكم تنجيمه وبحكم إعادة الترتيب التي خضع لها بناؤه العام.

2 ـ قصة موسى (ع) بين القرآن المكي والقرآن المدني.

وإذا ما نظرنا إلى مواقع قصة موسى (ع) في القرآن الكريم، وكذلك السياق الذي ظهرت فيه القصة، وكذلك حجمها في النص القرآني، فلربما كانت قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم أكثرَ القصص تمثيلا للسيرة النبوية المباركة. ولربما كان الدافع الأول إلى ورود قصة موسى (عليه السلام) بهذا الشكل المكرر والمكثف، مناسبتها للسياق الدعوي الذي جاءت فيه. "فقصة كقصة موسى تُذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها، منذ مولده ـ بل قبل مولده ـ إلى وقوفه بقومه أمام الأرض المقدسة، حيث كتب عليهم التيه أربعين سنة، جزاء وفاقا. لأن في كل حلقة من حلقات القصة غرضا دينيا يبرز، وله صلة بأهداف القرآن العليا."[44] وبالتالي فقصة موسى (عليه السلام) بحكم امتداد حوادثها على محور زماني طويل جدا، كان لها شرف المعادلة الفنية للسيرة النبوية، فهذه الخاصية تمنحها مزيّة تشابك الحوادث وتعقدها وتنوعها واختلافها، بدرجة تجعل منها تتناول أغلب جوانب الحياة الدعوية التي مرت بها الدعوة الإسلامية.

من أجل ذلك فإن القصة التي بين أيدينا هي القصة الأكثر مناسَبة لأن تكون ظلا مباشرا للسيرة النبوية، ترصد كل تحولاتها وتغيراتها وتطوراتها، فإذا ما أمعنّا النظر في القصص القرآنية الأخرى، وجدنا أنها تروي حيوات أنبياء ومرسلين على امتداد فترات زمانية قصيرة بعض الشيء مقارنة بالقصة التي بين أيدينا، ذلك أنها تروي من حيواتهم القليل، على اعتبار القرآن الكريم لا يسرد من الحوادث إلا ما كان ذا أهمية بالغة في إعلاء كلمة الله ونصرة الدعوة الإسلامية المباركة. وعليه فإن قصة موسى (عليه السلام) قد جاءت على هذا الشكل المكرر والمبثوث بين ثنايا القرآن الكريم، بحكم كونها جزءا من القرآن الكريم ككل، والذي كان ينزل أساسا حسب الحاجة وحسب الضرورة التي تقتضيها السياقات الدعوية. وعليه يمكن الخلوص إلى أن قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم قد جاءت وفق النظام النصاني الذي هي عليه من أجل آداء مهمة دعوية، فنزلت وفق الضرورة ووفق الحاجة إليها، وبالتالي فإن بناءها النصاني هو نتيجة مباشرة للسياقات التي أدت إلى تشكيل النص القرآني عموما.

وردت قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم في أربع و أربعين سورة، ما بين مكي ومدني، وما بين سور طوال وقصار، وما بين آيات طويلة وآيات قصيرة...[45] من أجل ذلك وجدنا أنها تختلف في شكلها البنائي من موضع لآخر، من حيث الطول والقصر، ومن حيث التراكيب والعبارات والألفاظ، ومن حيث المواضيع والمضامين، ومن حيث الفصول والأجزاء والمشاهد واللقطات؛ مثلا: وردت قصة موسى (عليه السلام) في سورة البقرة مطوّلة ومشروحة، تروي أحداثا متعددة وتعالج قضايا مختلفة، مع آيات طويلة. وهي في ذلك تتناسب مع البناء العام للسورة بكاملها. فسورة البقرة هي الأطول من بين سور القرآن الكريم، وآياتها كذلك تتميز بشيء من الطول نسبيا بدليل أن أطول آية في القرآن الكريم محتواة في هذه السورة، فهي سورة مدنية، وهذه الخصائص هي من بين أهم المميزات الشكلية التي اختص بها القرآن المدني.

من أجل ذلك وجدنا قصة موسى (عليه السلام) قد جاءت في أطول مقاطعها محتواة في سورة البقرة، ومثيلاتها من السور الطوال مثل سورة الأعراف كذلك. بالمقابل جاءت قصة موسى (عليه السلام) في سورة الفجر قصيرة وختصرة، تروي أحداثا قليلة وتعالج قضية منفردة، مع آيات قصيرة. وهي في ذلك تتناسب مع البناء العام للسورة بكاملها. فسورة الفجر هي من بين السور القصار في القرآن الكريم،

وآياتها كذلك تتميز بشيء من القصر نسبيا، وهي سورة مكية، وهذه الخصائص هي من بين أهم المميزات الشكلية التي اختص بها القرآن المكي. من أجل ذلك وجدنا قصة موسى (عليه السلام) قد جاءت في أقصر مقاطعها محتواة في سورة الفجر، ومثيلاتها من السور القصار مثل سورة الأعلى، البروج، النازعات.[46]

لكن يجب ألا نسلّم بهذا القانون بصفة مطلقة تماما، بل لابد من التنبّه إلى أن القصة في بعض مواضعها من القرآن الكريم لا تتناسب بتاتا مع طول السورة، حيث نجد أن القصة في أحايين كثيرة ترِد قصيرة ضمن سورة طويلة بعض الشيء أو طويلة جدا. فعلى سبيل التمثيل: سورة آل عمران وهي من السبع الطوال، قد جاءت القصة فيها قصيرة جدا بالمقارنة مع طول جسد السورة بل إن هناك سورا أقصر منها طولا قد احتوت بداخلها مقاطع سردية أطول بكثير من ذلك المقطع الذي احتوته سورة آل عمران، مثل سورة طه، وسورة يونس، وسورة الشعراء. وكذلك الحال بالنسبة لسورة مريم، فرغم كونها سورة مكية تتميز بشيء معتبر من الطول، إلا أنها لم تحوي بداخلها إلا على فصل قصير من القصة، بشكل مختصر جدا.

وفي الوقت نفسه قد نجد قصة موسى في القرآن الكريم قد وردت في سورة من السور وقد استهلكت من جسدها جزءا كبيرا، بشكل يجعل منها الموضوع الأهم في السورة. مثل سورة غافر والتي احتوت في بنائها على 34 آية تروي فصولا محددة من قصة موسى (عليه السلام)، في الوقت الذي كان عدد آياتها لا يزيد عن 85 آية. وكذلك الحال بالنسبة لسورة القصص، حيث نجد أن حجم قصة موسى (عليه السلام) قد اشتمل على 48 آية من بين 88 آية، مما يعني أن جسد القصة في هذه السورة أكبر من الجزء الذي يعالج مواضيع أخرى ضمن حيّز سورة القصص.

وكذلك سورة الشعراء، حيث ورد ذكر القصة فيها على نطاق 58 آية، بينما كان جسد السورة مشتملا على 227 آية، خاصة إذا علمنا أن هذه السورة قد عالجت عدة مواضيع، وتطرقت إلى قصص أنبياء آخرين غير موسى (عليه السلام). مع الإشارة إلى تميّز القصة عما سواها من ناحية الترتيب الزمني للأنبياء الوارد ذكرهم، فيبدو جليا من الترتيب الوارد في السورة أن القصة قد خرجت عن القانون الكرونولوجي لترتيب ذكر الأنبياء، وهذا ما يعطيها تميّزا آخر عمالا سواها.

وكذلك هو الحال في سورة طه حيث تمتد قصة موسى (عليه السلام) على مساحة حوالي 100 آية من بين الـ 135 آية المشكّلة لجسد السورة، مما يعطي القصة في موضعها من سورة طه الأغلبية الساحقة من الاهتمام. كما أن قصة آدم التي جاء

ذكرها في نفس السياق من السورة لم يراعى فيها الترتيب الزمني بين النبيين عند ذكرهما في السورة، وهذا ما يمنح القصة موضوع الدراسة تميّزا آخر عما سواها. وعليه فقصة موسى (عليه السلام) بهذا الشكل تحتل المقام الأول في جسد سورة من السور بكاملها، وهذا ما يمنحها ميزات وخصائص، أهمها أنها معادل فني قوي للسيرة النبوية المباركة؛ على اعتبار أن القصة القرآنية عموما وقصة موسى (ع) خصوصا، قد نزلت حسب الضرورة وحسب الحاجة. خاصة إذا ما اعتبرنا الخطابات السابقة واللاحقة بالقصة، والتي نجدها في الغالب تتوجه إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام) بالخطاب والنصح والتوجيه وحتى العتاب.

فمن خلال النصوص السابقة واللاحقة لجسد القصة ـ موضوع الدراسة ـ في عدة مواضع من القرآن الكريم، يتبين لنا أن القصة تخدم الدعوة الإسلامية مباشرة، من خلال العبرة والموعظة والتأسي، التي تستفاد من القصة، مثل سورة طه، سورة الفجر، سورة البروج، سورة النازعات، سورة طه... الخ. حيث يلاحَظ أن الله سبحانه وتعالى يتوجه إلى الرسول (عليه السلام) بالخطاب مباشرة في مواضع كثيرة من القصة في القرآن الكريم، مثل الخطاب الوارد في مقدمة سورة طه، والذي يتبعه مباشرة سرد مطوّل لقصة موسى (ع). وكذلك الخطاب الختامي الوارد في سورة الكهف والموجه للرسول (عليه الصلاة والسلام)، والذي يسبقه سرد مطوّل لقصة موسى (عليه السلام) مع الرجل الصالح.

ويمكننا أن نلاحظ من خلال هذه المقاربة البنيوية لجسد القصة في مختلف المواضع من القرآن الكريم أن القصة القرآنية ـ قصة موسى (ع) نموذجا ـ قد انتظمت في مجموعها بشكل يجعل البُنى السردية لقصة موسى (ع) في القرآن الكريم تشبه الأشكال السردية: رواية، قصة، أقصوصة. وعليه تبدو قصة موسى ـ بهيئتها السردية السابقة ـ كأنها تَمثُّلٌ تنازليٌّ للسرد الفني، من الأعلى إلى الأسفل، من الأطول إلى الأقصر، من خلال اللجوء إلى اختزالات قصصية معيّنة، بين هذه البنى السردية المختلفة طولا وقصرا، والواقعة على امتداد أربع وأربع سورة في القرآن الكريم. مراعية في ذلك طول السور وقصرها من جهة أولى، ومراعية السور المكية منها والمدنية من جهة ثانية، ومراعية للسياقات المختلفة التي تحيط بالنص القرآني.

ويمكن الملاحظة بسهولة أن قصة موسى (ع) في القرآن الكريم، في جميع مواضعها، وبجميع أشكالها، طولا وقصرا، قد راعت القرآن المكي والمدني، كما راعت طول السور التي احتوتها من حيث طولها وقصرها، في أغلب خصائصها. حيث

نجد أن القصة ترد موجزة مختصرة وقصيرة، في السور القصيرة، بينما ترد مفصلة مشرّحة وطويلة في السور الطويلة جدا، أو الطويلة نوعا ما. فقصة موسى (عليه السلام) من خلال هذا البناء الشكلي في مختلف مواضعها من القرآن الكريم، تتناسب مع الأشكال القصصية الوضعية: الرواية، القصة، الأقصوصة. كنتيجة مباشرة للظروف والسياقات التي أدت إلى تشكيل النص القرآني بمختلف خصائصه النصية التي رأيناها من قبل، وعليه يمكن القول أن القصة القرآنية ـ قصة موسى (عليه السلام) نموذجا ـ من حيث طول بنائها أو قصره، تحمل في طياتها خصائص بناء النص القرآني، هذا الأخير الذي تشكّل ضمن مجموعة سياقات وظروف محددة. وعليه فإن القصة القرآنية ـ قصة موسى (عليه السلام) نموذجا ـ من حيث طول بنائها أو قصره، قد تشكّلت ضمن نفس السياقات والظروف.

وعليه يبدو من خلال هذا القانون السردي أن القرآن الكريم قد راعى طبيعة المتلقين ومستوياتهم، وبطبيعة الحال فإن المتلقين في الفترة المكية ليسوا هم المتلقين في الفترة المدنية، ففي الأولى كان الخطاب موجها في الغالب إلى العرب الوثنيين ممن اشتهروا بالفصاحة، أما في الثانية فنجد العرب والعجم من يهود ونصارى ومجوس... الخ. من أجل ذلك "رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا [...] وقل ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة، لبعد فهمهم، وتأخر معرفتهم."[47] فإذا كان القرآن الكريم قد راعى ظروف التلقي في بنائه النص من خلال جملة المميزات الشكلية والمضمونية التي تميز بها القرآنان المكي والمدني، فإن تأثر النص السردي بنفس الظروف أمر وارد ويمكن البرهنة عليه من خلال زوايا كثيرة، لعل أهمها ما تعلق منها بالشكل القصصي القصير الذي وردت عليه القصة في بعض مواضعها من القرآن الكريم.

خاتمة

يجب التأكيد دوما أنه على الباحث مراعاة كل هذه الاختلافات الجوهرية بين المكي والمدني من القرآن ـ كخاصية من خصائص النص القرآني ـ عند دراسته لموضوع ما في القرآن الكريم، ومن ثم وجب أيضا على الناقد السردي مراعاة تلك الاختلافات عند دراسته لقصة ما في القرآن الكريم. إذن: فالقرآن المكي والقرآن المدني ـ من خلال السمات شكلية ومضمونية، التي تجعل كل واحد منهما يتميز بميزات خاصة ـ هما مفتاحان رئيسيان يجب أخذهما في الحسبان عند الولوج إلى

دراسة القصة القرآنية، فهما بوابتان رئيسيتان في الدخول إلى أسرار النص القرآني، السردي متنه وغير السردي. وسوف يحاول البحث إبراز تأثير القرآن المكي والمدني في كيفية انبناء النص السردي القرآني متمثلا في قصة موسى (عليه السلام).

الهوامش:

1 -محمد قبيسي: تدوين القرآن الكريم الوثيقة الأولى في الإسلام، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص15.

2 -أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، تحقيق: حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، ص253.

3 -محمد حسن حسن جبل: وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله (ص) إلى أمته، دار الصحابة للتراث، طنطا، دط، 2001، ص232.

4 -حاتم الصكر: ترويض النص "دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، إجراءات ومنهجيات"، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1998، ص45.

5 -فضل حسن عباس: القصص القرآني "إعجازه، إيحاؤه، ونفحاته"، شركة الشهاب، الجزائر، دط، 1989، ص22.

6 -عدنان محمد زرزور: علوم القرآن "مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه"، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص79.

7 -مثلا سورة البقرة نزلت خلال فترة زمنية يقدر الرواة الفترة الزمنية التي نزلت خلالها هذه السورة، بعشر سنين.

8 -محمد أبو زهرة: القرآن المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، دس، ص24.

9 -محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة، 1987، ص221.

10 -المرجع نفسه: ص222.

11- المرجع نفسه، ص222.

12 -المرجع نفسه: ص220.

13 -سليمان بن علي: العلاقات السيميائية في القرآن الكريم، "دراسة في دلالة الحسي المشاهد على المجرد الغائب"، محاضرات الملتقى الثالث للسيمياء والنص الأدبي، 19، 20 أفريل 2004، منشورات الجامعة، جامعة بسكرة، الجزائر، ص91.

14 -عدنان محمد زرزور: علوم القرآن "مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه"، مرجع سابق، ص136.

15 -المرجع نفسه: ص136.

16 -المرجع نفسه، ص135.

17 -المرجع نفسه، ص135.

18 -هشام جعيط: في السيرة النبوية، الجزء الثاني، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص183.

19 -نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير "دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 2003، ص142.

20 -لمزيد من الاطلاع حول قضية الاختلاف بين شكلي ومضموني القرآنين: المكي والمدني بشكل أوسع، ينظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، مرجع سابق، ص335 ـ 340.

21 -عدنان محمد زرزور: علوم القرآن "مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه"، مرجع سابق، ص136.

22 -محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص219.

23 -المرجع نفسه: ص220.

24 -هشام جعيط: في السيرة النبوية، الجزء الثاني، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، مرجع سابق، ص183.

25 -محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص223.

26 -محمد التوميي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس/ الجزائر، الطبعة الأولى، 1986، ص71.

27- فضل حسن عباس: القصص القرآني "إعجازه، إيحاؤه، ونفحاته"، مرجع سابق، ص29.

28 -المرجع نفسه: ص225.

29 -لمزيد من الاطلاع حول هذه القضية ينظر: مناع القطان: نزول القرآن على سبعة أحرف، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1991، ص35 ـ 72.

30 -المرجع السابق: ص34.

31 -المرجع نفسه، ص34.

32- محمد عزة دروزة: القرآن والمبشرون، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1979، ص79.

33 -محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، مرجع سابق، ص315.

34 -والترج أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة: حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، دط، 1994، ص38.

35 -المرجع السابق: ص41.

36 -هشام جعيط: في السيرة النبوية، الجزء الأول، الوحي والقرآن والنبوة، مرجع سابق، ص17.

37 -شعبان محمد إسماعيل: رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية، 2001، ص75.

38 -المرجع السابق: ص63.

39 -ينظر الملحق الثالث: فهرس القصة في القرآن الكريم، حيث يلاحَظُ أن القصة وردت في مواضع مختلفة من النص القرآني وبأشكال وأحجام مختلفة، في أربع وأربعين سورة.

40 -ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي: صحيح قصص الأنبياء، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، 2002، ص253.

41 -عائشة رماش: (البنية السردية ودلالاتها في القصة القرآنية"قصة موسى أنموذجا")، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 11، فيفري 2002، ص151.

42 -سوف نأتي على تفصيل القول في هذه القضية عند توضيح خصائص السرد القرآني، في قضية البنية التكرارية للقصة القرآنية.

43 -جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، مرجع سابق، ص68، 69.

44 -سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت/ القاهرة، دط، دس، ص134.

45 -أنظر الملحق الأول والثاني: فهرس مواضع القصة حسب الترتيب العثماني، وحسب الترتيب التاريخي.

46 -لمزيد من الاطلاع ينظر الملحق الثالث، حيث يتضح جليا أن طول القصة القرآنية يرتبط في الغالب بطول السورة التي تحتويها.

47 -العسكري أبو هلال، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران: الصناعتين، الموسوعة الشعرية، الإصدار الثالث، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ص369.